قراءة في ما بعد حيفا..

حمدان حمدان*

■ في سيرورة الصراع مع اسرائيل، فان ما تحمله لبنان لم يتحمله اي بلد عربي آخر، وتبدو المقارنة بين حروب عربية ـ اسرائيلية خمس، والحرب السادسة الاخيرة، وكأنها مقارنة بين قلة الكلام والفعل او بمعنى ادق، بين العجز في التبرير والارادة في التعبير، ويتأمل المرء حقا، في نتائج حروب عربية سابقة، تطاولت في الزمن التاريخي لمرحلة عربية كاملة، ومع ذلك لم يتجاوز عديد ايامها كلها، اكثر من ثلاثة وثلاثين يوما، وهي عمر الحرب السادسة، التي لم تنته بفوز ساحق لاسرائيل، بل بتلقف اسرائيل لقرار وقف العمليات القتالية، بدليل انها المرة الاولى التي تلتزم قهرا بقرار من هذا النوع.

والحال، فانه لم يحدث في تاريخ الحروب الفاشلة ضد اسرائيل، ان وصلت قذيفة عربية الى عمق اسرائيل ولا لما قبل حيفا، ولا حتى الى نطاق مستعمرات الواجهة الحدودية مع اي بلد عربي آخر. وبلغة استراتيجية عسكرية، فان امدية الصواريخ مع حمولاتها المتفجرة، هي المكافئ الوحيد، لانكسار التكافؤ في الجو، ولو ان الفارق بين ما دمره الطيران الاسرائيلي، مقابل ما دمرته صواريخ حزب الله، كان فارقا في الكم لا في النوع، فمن المعروف بداهة، ان حمولة الطائرة الحربية من القنابل والصواريخ يمكن ان تتراوح بين طن واحد فاكثر، اما رأس الصاروخ فان حمولته التفجيرية تتراوح بين خمسين كيلوغراما او مئة، مع احتمال ما يزيد قليلا عن هذا الوزن.

اما المقابلة الثانية، فان افق استراتيجية حزب الله، تجول في منطق الردع الدفاعي وليس الهجوم، ولهذا تأتي حسابات النصر او الهزيمة في مقاييس متعاكسة بالنسبة للطرفين قياسا الى المهام المطلوب انجازها من وراء الحرب، واقل ما يقال، ان حزب الله، انتصر في الدفاع، وان اسرائيل انهزمت في الهجوم، وفي اللجوء الى التفاصيل، فان المهمات الموضوعة على جدول الهجوم الاسرائيلي، كانت واضحة كل الوضوح، استرداد الجنديين الاسيرين، بالقوة، وابعاد المقاومة الوطنية من الجنوب، وتجريد حزب الله من السلاح بالقوة الغاشمة.

وما من شك ان هذه الاهداف وموازياتها في لبنان خصوصا والمنطقة عموما، لم تنبثق الا في اطار مشروع مشترك امريكي ـ اسرائيلي متكامل، بدليل الشرق الاوسط الجديد الذي يولد من مخاض مؤلم في لبنان (رايس) او الشرق الاوسط الكبير الذي يولد من ولادة قيصرية في العراق (بوش)، او الشرق الاوسط الجديد الذي يولد من لهيب عاصفة الصحراء في مدريد (بيريز). فالمشروع الامريكي، كما هو العقل الامريكي في الادارة اليوم، لا يولد الا من نار الموت والخراب الشامل، حيث تتفتق العبقرية الخالصة عن تدمير تحت باطنية عنصرية مفادها تدمير لا خلق معه!

ولم يكن من اليسر بمكان، ان تقدم حكومة تل ابيب على تسلق المغامرة، لولا تطمينات دولية وتغطيات عربية رسمية، حيث بلغت الوقاحة بمسؤول اسرائيلي ان يعترف، بان اسرائيل في حربها ضد حزب الله، تلقى المباركة والتأييد، من دول عربية عديدة ودون الحاجة الى التسمية، فان هذه الدول بعد ان حملّت حزب الله مسؤولية اندلاع المعارك سارعت الى التركيز على مذهبية المقاومة اللبنانية مع محاولة ربطها بساحات اقليمية (ايران وملفها النووي) او بساحات عربية تتصل بانتكاسة التجربة الامريكية في العراق، وكأن الصراع مع اسرائيل، كان دوما بحاجة الى ذرائع لنقضه وابطاله! اذ ما الذي يفرق مع الرياض او القاهرة او عمان، ان يكون الصاروخ الموجه ضد قتلة الاطفال في فلسطين ولبنان والعراق، من صنع ايراني او صيني او كوري، ثم اين ولدت الـ«اف 16» والماركافا (ابرامز) والبوارج الاعلى تقنية، وهي هي اسرائيلية ام امريكية؟

اما السلاح فلا مذهب له، فكم من الحروب خيضت بسلاح آخرين من الحروب الاقليمية الى الحروب العالمية، فقد انتصر الحلفاء في النهاية، بسلاح امريكي وسوفييتي، كما ان فييتنام والجزائر وكوبا، لم ننتصر بسلاح من صنعها، فالمعادلة الاساس، تكمن فيمن يحمل السلاح واين يوجه.

ومن المفارقات البائسة، ان النظام العربي الذي يتذرع بطائفية المقاومة اللبنانية اليوم، هو نفسه من مرر العدوان على العراق بالامس، بل واكثر من ذلك، استمات في المطالبة به.

ومع ان الحرب السادسة، اظهرت مقدرة عسكرية لصالح المقاومة من جهة، وفشلا ذريعا بالنسبة لاسرائيل، كما يعترف كبار الاسرائيليين دون مواربة، الا ان امريكا، عبر وسيطها في الشرعية الدولية، ارادت ان تتخطف ما حققته المقاومة في الميدان، تعويضا عما فات اسرائيل في الحرب، فصخرة سيزيف الدولية، غالبا ما تتدحرج فوق رؤوس الشعوب الضعيفة، وكما جرى قبيل العدوان على العراق، فان استمطار القرارات الدولية، باتجاه تجريد حزب الله من السلاح ـ وهو اساس المشكلة في الاصل ـ يشبه الى حد بعيد، تجريد العراق من سلاحه الاستراتيجي، خاصة اذا تذكرنا امدية الصواريخ العراقية المطلوبة، بحيث لا تتجاوز خمسين كيلومترا مع طبيعة الحمولات التفجيرية الخاصة بها، فالهم الا يمتلك طرف عربي، ربع المقدرة التسليحية لاسرائيل في ابعد الحدود، فسلاح حزب الله، لم يكن يوما بغرض التهديد، وانما لردع التهديد القادم من اسرائيل، وبهذا المعنى فانه الوسيلة الوحيدة لدرء العدوان وليس لممارسته، وفي الاصل فان الاحتلال هو جاذب الاسلحة الوحيد الى المنطقة، اذ لولاه ما كانت شعوب المنطقة بحاجة الى صرف مئات المليارات عليه، او بذريعته، فيما تعيش هذه الشعوب حالة فقر واملاق، بل وحالة قصور تنموية فادحة بين بشرية وبنيوية بدرجة متساوية من التخلف، فموازنات الجيوش العربية أكلت حقول التنمية ومستويات المعيشة والتطور على غير صعيد، من غير ناتج او مردود، بل لعل ناتج حزب الله وحده، يفضلهم جميعا في المهنة ذاتها، التي حكمونا باسمها عقودا فوق عقود، وفي هذا المقام فاننا نحذر من الوقوع في الشطط المتطاول في مبالغات تقويم الانتصارات والهزائم، فالذين يرفعون درجة الخسارة الاسرائيلية الى مرتبة هزيمة، وسوية فلاح حزب الله في رد العدوان وتكبيد العدو خسائر في العمق، الى مصاف انتصار ناجز، فانهم يتجاهلون جملة من الحقائق الدولية والعربية والاقليمية، علما بان الصراع العربي ـ الصهيوني، انما يدور في هذه الحلقات جميعا دون انقطاع، ومع ان اول الغيث قطرة، فانه لمن السذاجة المبكرة الحديث عن بداية افول اسرائيل وعقائدها المذهبية والعسكرية، فاسرائيل ليست ظاهرة عرضية اقليمية في المنطقة، بل هي كيان مشفوع بدعم مفتوح من الغرب عموما ومن القوة الاحادية فوقه، وهو دولة تحظى بكل اسباب القوة الى درجة تصنيفها في عداد الدول الثماني الاولى في العالم وهو تقويم لا بهدف التهويل وانما بهدف اقصاء الغرور وعدم الاستخفاف إذ لن يمضي هذا العام، الا واسرائيل تعيد الكرة ضد حزب الله، مع احتمال كبير لجر المنطقة الى حرب اقليمية اضلاعها في مثلث، ايران وسورية وحزب الله، فبعد الهزة الاسرائيلية تتحرك على التو ثلاثة محاور سياسية كبرى وجميعها معادية للسلام عداء الافعى للانسان بدليل تأييد ما يزيد على نسبة ثمانين بالمئة من شعب اسرائيل للحرب ضد الآخر (الغريب مذهبيا) سواء كان عراقيا ام فلسطينيا او لبنانيا او افلاطونيا!

وتصطف هذه المحاور حسبما يبديه مشهد اسرائيل الحالي بين كديما المهزوز بزعامة اولمرت وتحالف بقايا العمل بشخص عمير بيرتس، وجناح آخر يعلو صوته بالنقد والتجريح، بزعامة موفاز ووزيرة الخارجية السيدة ليفني، وهناك الرأس المحارب في المعارضة نتنياهو الذي يرى الامن الاسرائيلي وهو يبتدئ من بغداد الى تل ابيب عسكريا، فيما هو كأمن أمان يبتدئ من عشق اباد الى عسقلان.

وبالفعل فان ايا من هذه المحاور وكنتيجة استقطابات داخلية اسرائيلية من جهة واعادة الاعتبار باسترداد الجدارة المفقودة امام الولايات المتحدة من جهة اخرى، فان واحدا من هذه المحاور لن يقبل بأقل من انتصارات دايان وشارون على العرب، حتى ولو اختلفت المرحلة وتداخلت الظروف.

ومن هنا فان عودة الحرب ستكون اسرع من المشاحنة على تطبيقات القرار 1701، بين اطراف الداخل اللبناني بذاتها، او اطراف المحاور العربية الناطقة بلسان واشنطن دون مواربة، وهو عامل اضافي، سيضفي على العدوان الجديد مشروعيته بامتياز، فالقرار الاخير الصادر عن الشرعية الدولية لا تنقصه مادة واحدة لاستثارة النزاع الدموي من جديد حتى لو كان الاستخفاء وراء وقف اطلاق النار، وحتى هذا المصطلح فانه لم يسلم من التلاعب حين يتم تحويله الى مادة تقول بوقف العمليات العسكرية.. على ان البون بينهما واضح في التأويلات القانونية، حيث وقف اطلاق النار يعني عودة القوات المتحاربة الى مواضع انطلاقها خلف الحدود الدولية، بينما وقف العمليات يعطي الفرصة لبقاء القوات كل في مكانه الذي وصل اليه.

ولما كانت اسرائيل هي المضطرة لوقف القتال فعلا، فان الرهان يأتي في التزام اسرائيل الفعلي بوقف القتال، حيث لاول مرة في تاريخ اسرائيل القتالي تلتزم اسرائيل بمثل هذا الالتزام الصارم على غير عادة مع قرارات حروبها السابقة.

وفي تضمين القرار 1701 وجوب تنفيذ ما جاء عليه القراران 1559 و1680، اي نزع سلاح حزب الله في الاول وترسيم الحدود بين لبنان وسورية في الثاني، فان هناك كفاية فائضة لشرعنة عدوان اسرائيلي جديد. فاسرائيل لا تحتاج لكل هذه الفرص من اجل اهتبالها خاصة اذا اعتبرت الشرعية الدولية بان اسر الجنديين الاسرائيليين عمل من اعمال المبادرة للعدوان وان حزب الله هو المسؤول طالما ان (الخطف) تم من داخل الخط الازرق، ولا نعرف عديد الاسرى في السجون الاسرائيلية الذين تم اختطافهم في الضفة والقطاع ولبنان بما في ذلك خطف الامين العام للجبهة الشعبية من سجنه الدولي في اريحا، او خطف الرئيس الشرعي للبرلمان الفلسطيني من بيته وعلى مرأى من افراد عائلته.

اننا لا نرغب في اعادة الحديث المكرور عن عدالة او لا عدالة الشرعية الدولية التي تديرها امريكا كمكتب لبولتون في الخارجية الامريكية، فالقرار الذي يهتم العالم بسرعة انجازه اليوم قبل الغد والذي في جوهره لا يتعدى نقطة واحدة هو تجريد حزب الله من سلاحه تقابله قرارات للشرعية الدولية، ما زالت نائمة في ادراج الغطرسة الاسرائيلية ـ الامريكية، منذ اربعين عاما بعد ان احيل الى التقاعد، قرار حق العودة الفلسطيني ولا سبيل هنا لاقامة المماثلة الضدية بين قرارات ممتازة، واجبة الاسراع في التنفيذ وقرارات كيفية يمكنها الانتظار على الرف لعقود.. وفي هذا المجال فان استثارة الذاكرة للقارئ يمكنها ان تحمله الى حالة فاقعة حين استخفت الولايات المتحدة بتاريخ ونظم العلاقات الدولية بل وبكل القيم بين الدول والشعوب، حيث ذهبت تغزو العراق رغم انف المؤسسة التي كانت من اوائل المؤسسين لها والحادبين عليها.

انه منطق القوة او البقاء للاقوى اذ مهما تبدلت المصطلحات وارتقت اللغات فان قانون الاصطفاء هذا ما زال هو محرك احداث العالم، اما نظامنا العربي فهو خارج الكون لا لشيء وانما ببساطة لانه العطب في الارتهان وهو عطب لا يُرجى شفاؤه.

* كاتب من فلسطين يقيم في سورية

بين الزنزانة والمنفى: ما قل ودل من خواطر لاجيء سياسي

منذر اللاوي*

■ مت اسلاميا او شيوعيا في الزنزانة او في المنفى لا اعارضك فهو حظك، انت مسؤول عنه في الاخر، سواء جاء موتك بحبل المشنقة او برصاصة وسط مظاهرة، المهم ان دمك لن يجف من ذاكرة الناس سواء مدحوك او ذموك في فعلتك تلك.

ولكن حين يتعلق خبر الموت بأحد من اهلك واشد الاقربين اليك فهناك وقفة او وقفات تخفي وراءها حكاية:

تقتاد من بيتكم ذات فجر بين افراد عائلتكم وهم في حيرة من امرهم لا حول ولا قوة لهم سواء السكرة على عيونهم، وامك تقسم بأقدس شيء عندها وعندهم ان كانوا يؤمنون به ان يأخذوها مكان ابنها المحاط بعشرات رجال المخابرات وهو حافي القدمين لا يعرف الى اي مكان هو ذاهب ولكن بالتأكيد ليس للمسرح او الحديقة او للعب الكرة.

وترمى الى زنزانة تزورها لاول مرة وتدخل الى عالم السياسة التطبيقية بعيدا عن شعارات المهرجانات الثقافية وتخرج من حلم المراهقة السياسية الى عالم لا تعرف كم ستظل بين جدران زنزانته المتواجد بداخلها اناس لم ترهم من قبل تختلف معهم في كل شيء الا في السياسة وحسب وتصير الزنزانة كتابا يكتبه سكانها من خلال الشعر والحكم والاغاني. وتظل انت معهم وينقطع الجميع عن العالم الخارجي. وتخرج بعد دهر وسنين معدودة فتجد الجدة فارقت الحياة وهي طالبت ذات مرة ان لا تلتحق بالمظاهرات خيفة عليك! غير عارفة بسقوط الشهداء وعدد الجرحى! ويتجنبك الصديق بعد الخروج مخافة عيون الرقيب التي تتناوب عليك وعلى غيرك ممن اختار ذاك الطريق. امك المسكينة كل مساء تبلل وجهك بدموعها البريئة الحارة: يا ولدي خذ عكس هذا الطريق وحدك لا تستطيع ان تقيم امة! وحدك تموت كالغريق! تزوج، انظر الى اقاربك وابناء الحارة والبعيد، الكل يملك المال والولد وبقيت وحدك المتخلف في كل شيء!

في الاخير تختار سفينة الهروب من تلك (الزنزانة الكبيرة) فتودعك امك ذات جمعة مع تباشير الفجر وتقبل رأس ابيك وتغيب طويلا كما غابت الشمس عن زنزانتك وربما اكثر. ولكن رجال المباحث لا يغيبون عن ملاحقة امك وابيك صباح مساء نفس الحكاية (نريد عنوان ابنكم) حتى في مأتم اخيك الذي صادف موته يوم استشهاد الشيخ احمد ياسين، اخوك شاهد على الهواء مباشرة جنازة الشيخ ياسين ثم اخذته المنية اثر حادث فصار شهيدا ايضا لكن بتفاوت في النية والمسؤولية مع تلاحق الارواح عند بارئها هناك التحقت ارواحهم بكل الذين سبقوا الى هناك الى عالم الخالدين من شهداء الفلوجة وجنين وبعقوبة وحماه وصبرا وشاتيلا وتدمر.

غياب جدتك واخوك وابوك ليس بالحمل الثقيل مثلما حدث للاخرين ممن استوت بهم الارض وقد لا تخرج اجسادهم الا مع جملة الاثقال يوم الدين.

ويزداد ألم الغربة وتحصل على جنسية هذا البلد (فتخبر تلك الام المذبوحة بمصيبة فقدان ابنها لعل احزان الزمان تذهب عنها) لكن تلك الاخيرة ترجوك الا تعود اليها فتقرأ بين سطور رسالتها الهاتفية المستعجلة ان دار لقمان هي على حالها وربما ازدادت سوءا! خاصة بعد ان رزق ذلك الحاكم بولد! وجاءت لحظات تنفس الصعداء لترى امك وأباك بعيدا عن الوطن بعد فراق دام سنين وسنين وكنت تطمح ان يكون اللقاء مفاجئا وتقبل ايديهما ولم لا ارجلهما! واقترب موعد زفاف اخيك الصغير وزفافك انت الذي لا وقت لتأخيره اكثر! ولكن فجأة هكذا يغادر ابوك الحياة تاركا وراءه شريطا (يصف عذاب القبر) دون اي شيء آخر، راحت روحه الطاهرة لتنام عند ربها ليلة الجمعة بعد ان كانت اخر مكالمة بينك وبينه انه توضأ (منتظرا صلاة العشاء)، الموت هذه المرة اخذ منك ابوك، ابوك الذي عاش اغلب الحروب العالمية! تجاوز سنه التسعين لم يشهد انه أحب اي نظام في تلك البلاد او في غيرها، عشق فلسطين والشيخ كشك وعلماء الامة العاملين دفن على بعد متر من قبر اخيك الذي لم تفارق صورته سماء قلبك الذي غبت عن جنازته وقد تكون انت المغسل له الامام عليه، هو الموت اذا! جاء في الزمن المنسي، طرق بوابة الاحزان رمى بكل ما تمنيته عرض الحائط كان حلمك ان تصلي مع ابوك بالقدس الشريف! ان يبلغ ابوك المئة عام ان يزور مكتبتك الضخمة بلندن فهو الذي اشترى لك وانت لم تبلغ السابعة عشرة تفسير (في ظلال القرآن ـ للشهيد سيد قطب) وهو الذي ارسل لك قبل شهرين من رحيله مجموعة كتب نادرة عن تاريخ ذلك البلد قصد مساعدتك في تأليف كتاب تهديه لابيك وامك واخوتك الراحل منهم والباقي لاجل مسمى.

جدتك اخوك ابوك وكبار العائلة سبقوك الى الدار التي لا بد منها. دع عنك حسناتهم وسيئاتهم فأمرهم مفوض لربهم! لكنهم لم يشاركوا في تشريد امة لم يقدموا ارواح شعبهم فريسة للحيتان الجائعة على اطباق ـ قوارب الموت! ابوك لم يستطع ان يمنع الغزاة من اسقاط بلد الرشيد بغداد في التاسع من نيسان (ابريل) 2003 اكتفى بالدعاء في الصلاة على الافرنجة وذلك ـ اضعف الايمان، امك المسكينة ايقظتك فجر قصف العراق سنة 1991 وهي متحسرة القلب عكس دول عربية شاركت في تلك الجريمة النكراء. احد اخوتك انضم لقوات الثورة الفلسطينية عكس جيوش دول عربية كانت متسابقة في دك مخيمات الفلسطينيين ارضاء لامريكا والصهيونية وما تبقى من اللقطاء من غير الجنس الادمي!

رحل اخوك وابوك ورحل ادوارد سعيد وروبن كوك والشيخ احمد ياسين والرنتيسي وابو علي مصطفى الى العالم الاخر بعد ان ضحوا المواقف التي عاشوا من اجلها!

والقضية يا صاحبي يا اخي الذي لم تلده امي:

ان يرحل ذلك الزعيم الى خلف البحار حيث قصوره او ان يباع في سوق الاطمار البالية يفعل العالم الراحل (العز بن عبد السلام) مع امراء عصره حين ظلموا شعوبهم.

لن يندم جرح فراق الوطن وفقدان الاهل الا بتحقيق هذا الشرط والى حين نهاية الساعة المظلمة! فليعد من شاء من النافذة او من الباب مع الفجر او عند الظهيرة من البحر او من الجو. فاللاجئون من بين وطني هم ثلاثة لا اقل ولا زيادة، منهم من خان الطريق وتناسى جراح الاخ والرفيق ومنهم من فارق الحياة ودفن في مقابر الغرباء عند فجر دامس دون بكاء الاهل وحضور الصديق، ومنهم من ظل يعيش على مقولة سيدنا عمر بن الخطاب «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا» رافضا التوقيع على صك طلب الغفران من نافذة سفارة بالغرب هنا وهناك. ولكن حتما سيعود هو ومن ظل على خط النضال وما اقلهم. سيعودون الان او عند المشيب او نعوشا او عظام رميم، او سيعودون من خلال كتابة تاريخ شعب قدره حتى الان انه لا يستطيع ان يرفع رأسه حتى كبقية افراخ الوز وسط براكين المياه. دماء الشهداء امانة في اعناق اهل البلد ليست قنطرة عبور لمن هب ودب! خذوا عنا احزابكم وخطاباتكم لا نريد صورا لزعماء، لا نثني بعد الله على احد، سوى على الدماء والجراح ورحيل الاخوان والاباء. كفانا زعامة ومنافع هيا ارحلوا عنا جميعا لم نعد مخبرا لتجارب الافكار والسياسات الفاشلة.

* باحث من لندن

يرفض دولة عراقية مركزية بجيش قوي:

البارزاني لا يكشف سرا بإعلان خياراته الاخيرة!

جمال محمد تقي*

■ عندما يتحدث البارزاني علنا وعلى رؤوس الاشهاد ويعلن بصريح العبارة ما يضمره ويسعى اليه هو وحركته فإن اي متابع للشأن العراقي بدقائق تطوراته سيعرف ان هناك طبخة بمقادير محددة يجري اعدادها على نار هادئة ومنذ زمن ليس بالقصير، وكلما تأخر استواء محتوياتها يحاولون زيادة نار طبخها تعجلا لتجهيزها وحسب الطلب الاولي الذي حدد نوعها وطعمها ولونها ورائحتها!

اما من هم الطباخون، فهم كل المتحاصصين من مدعي التمثيل السكاني للاثنيات والاعراق والطوائف العراقية، وليس سرا ان المشرفين عليها والمعدين لها هم ذاتهم غزاة العراق وحلفاؤهم في المنطقة.

واذا اردنا مقارنة تصريحات البارزاني وافعاله منذ احتلال العراق حتى الان وكي لا نرجع كثيرا الى الوراء لان الوراء لا يختلف في مضمون سعيه عن الذي حصل بعد الاحتلال بل كان عبارة عن مقدمات موضوعية له، مع تلميحات وافعال جماعات التحاصص والتقاسم في الجنوب والوسط فاننا لا نجد فارقا شاسعا او جوهريا بينهما، لكن يبقى لاقطاعيي الشمال اندفاعتهم ذات المسعى المبرمج والمدفوع والمدعوم من اشد القوى رغبة في تحطيم اي شيء له علاقة بالعراق الواحد القوي والقادر والمستقر والمتطور، ومعرفتها لم يعد سرا ايضا، انها اسرائيل، باعترافها واعتراف مؤرخيها ومحلليها وبعض سياسييها من خلال علاقاتها التاريخية المتجددة مع قادة حركات التمرد العشائري والاقطاعي الرجعي في شمال العراق، ومنذ حكم الجمهورية الاولى بقيادة الزعيم عبد الكريم قاسم، ناهيك عن ارتباطاتهم الارتزاقية بالحكم الشاهنشاهي في ايران الذي جعل منهم ومن تمرداتهم ورقة ضغط بيده على الحكومات المتعاقبة في العراق!

لقد اعلن البارزاني مؤخرا انه سيسعى وبكل قوة لمنع قيام دولة عراقية قوية المركز وسيعمل على عرقلة اي توجه لتقوية جيشها كي لا يكون درعا لهذه الدولة، واستدرك بان العراق مقدم على ثلاثة خيارات لا رابع لها وهي على النحو التصاعدي التالي: الفدرالية، الكونفدرالية، التقسيم. قد يجد البعض ان هذا التصريح غريب وشاذ، ويتمنى البعض الاخر من مرتزقة ودلالي وحلفاء الاقطاع الكردي من عرب النسب ان لا ينتبه الى هذه التصريحات احد، لانها تسقط اوراق التوت التي يحاولون وضعها على واقع وآفاق مشروع الاغوات هذا! وهي تجعلهم منبوذين وعراة امام النزعة الوطنية الجياشة التي يتسم بها ابناء العراق الشرفاء، وهم الاغلبية الكاسحة من الشعب بكل شرائحه وفئاته.

اما الذين ما زالوا على بصيرتهم وعلى متانة ذاكرتهم وعلى اخلاصهم لشعبهم وقضاياه فهم لا يجدون في هذه التصريحات اي شذوذ او غرابة، بل بالعكس يعتبرونها امتدادا طبيعيا لمسلسل الغدر والخيانة واللاوطنية، يعتبرونها سقوطا للاقنعة الزائفة التي يتجملون بها امام من لم يكشفهم بعد.

من لسانه ندينه

ان اي عاقل وغير مغرض يستطيع التوصل الى استنتاجات صحيحة من خلال قراءة سياسية علمية ونقدية بترابطاتها لتصريحات البارزاني وغيره من الاغوات ومقارنتها بافعالهم واشكال علاقاتهم وتعبئتهم الداخلية والخارجية وهي ستفسر الكثير مما يحدث في العراق من عظائم وعجائب الامور.

سنجدها متسقة تماما بين الاقوال والافعال، انهم يعتبرون الوضع الذي يمر به العراق الان هو فرصة تاريخية قد لا تعوض لاجل استقطاع الجزء الشمالي منه واقامة دولة تحقق لهم استقرارا يمكنهم من امتصاص ما يريدونه من خيراتها بعد ان تكون هذه الدولة ملكية شبه اقطاعية يتوارثها البارزاني وعائلته وحاشيته، وحتى يتمكنوا من ذلك فلا بد من وجود مبررات سياسية وفكرية وميدانية تكون غطاء للفعل القصدي والارادوي المخل الذي مارسوه بحق الدولة والمجتمع العراقي برمته.

فلا يمكن ان تكون مبررات القمع الذي مارسته حكومة ما ضد عشيرة ما او طائفة ما او حزب ما او اثنية ما مبررا منطقيا لانفصال هذه العشيرة او الطائفة او الحزب او الاثنية، لا سيما وان الحكومة التي يتذرع بقمعها الانفصاليون هم قبل غيرهم يعلنون انها لم تستثن احدا من قمعها، وهي عندما تقمع ليس لاعتبارات التمايز القومي او الطائفي او المناطقي، وانما لدواع سياسية صرفة، هذا اذا استثنينا اصلا ان الانفصال داخل الاقليم الواحد والشعب الواحد امر لا يحسب لصالح قوة الاقليم والشعب في مصارعته للقمع الذي تمارسه الحكومة، بل بالعكس قد يمنحها مبررا لزيادته وتركيزه على الداعين للانفصال، علاوة على ان حق الامم في تقرير مصيرها سيكون خارج هذه اللعبة تماما، اولا لان الاقليم الواحد والشعب الواحد هو المقياس الاصيل والمتحقق لاي مشروع انبثاق امة ما ودونه تصبح مقولة الامم غير المتحققة هي مجرد مجازات لغوية ترتبط بقضايا النزعات النفسية والثقافية ليس الا، وثانيا ان يكون شعب ما واقعا تحت احتلال جيش دولة وشعب اخر، كما هو حال العراق الان، فهو واقع تحت احتلال امريكي غاشم، وعليه من حق شعب العراق الذي تكفله كل الشرائع في تقرير مصيره من خلال مقاومته للاحتلال ومشاريعه، ومن اهم المبررات التي يمكن ان تكون عاملا حاسما وميدانيا لتحقيق هدف الانفصال هو حدوث حرب اهلية طاحنة تؤدي الى فصل وعزل سكاني ضمن جغرافيات الانتشار الممكنة والتي يصاحبها نزوح وتهجير قسري لفك اشتباك المناطق المختلطة، ولا نتجنى على احد اذا قلنا ان الذي يقوم به حزبا البارزاني والطالباني في مناطق كركوك وبعض مناطق الموصل وبعقوبة اضافة الى اربيل ذاتها كلها تؤشر الى انهم مستعدون لاشعال هذا الفتيل القاتل لتحقيق اهدافهم الجهنمية وغير المشروعة، والمصيبة تكمن في انهم يقدمون انفسهم كقوة مثل يحتذى بها من قبل اقرانهم في الجنوب والوسط حيث مظاهر التطهير الطائفي، بل انهم يساهمون بطرق مباشرة وغير مباشرة على اتساع نطاق العزل القومي والطائفي وتصفية من يعيقه، ووفق منهج متصاعد ومستور باقنعة متعددة اضافة الى المساهمة بعرقلة انبثاق جيش عراقي قوي يستثمر خبرات الماضي ويساهم في تعزيز الامن بالبلاد، وهنا كما في موضوعة ترسيخ الانعزال والتقاسم والتحاصص ليكون مقدمة لاعادة نشر شعب العراق على اسس غير الأسس الطبيعية في الانتشار، فان الاحتلال هو الراعي الرسمي لكل هذه الممارسات بل يشجعها ويستثمرها لمصلحة بقائه الدائم بالاحتلال المباشر او دونه، وما انتعاش ظاهرة التسلح وظاهرة الدفاع الذاتي لكل مجموعة من المهيمنين على الاحياء والمناطق وارتباطهم بالميليشيات التي هي اقوى بالعدة والعدد من ما يسمى بالجيش العراقي الجديد، الا صور صارخة لحالة تصاعد الاحتراب الداخلي التي سيعيشها العراق خلال الفترة القادمة، لينشغل الجميع بحربه الطائفية والعرقية عن محاربة الاحتلال ومشاريعه، وهذا الحال القلق ينسحب على كل المفاصل الاخرى كعلاقات دوائر الدولة ببعضها وفوضى تعليماتها بل تضاربها، وهي كالدستور المعلن لا تساهم الا بالمزيد من التباعد والضعف، اما موضوعة الاستثمارات النفطية الاجنبية في مناطق سيطرة البارزاني والطالباني دون سيطرة او تخطيط الدولة المركزية فهو امر جار على قدم وساق، هذا اضافة الى الاصرار على ان تكون هناك قنصليات لحكومة البارزاني في سفارات العراق، كل هذه الافعال والممارسات تؤكد وجود توجه واضح لاستغلال حالة الضعف العراقي من اجل استكمال مستلزمات الانفصال الكلي حيث ستحين الفرصة بتفجير الوضع الامني وبشمول اكبر، وتحت الحماية الامريكية ـ الاسرائيلية من اعتراضات دول الجوار، لقد صرح البارزاني مرارا وتكرارا بان الحرب الاهلية اذا قامت فانه سينفصل!

عليه فهو المستفيد الاول بعد الاحتلال من قيام الحرب الاهلية، والمنطق يؤشر الى مصلحته في السعي اليها والدفع باتجاهها، اذن فهو يسعى الى تحقيق خياراته كلها وعلى مراحل تكمل بعضها بعضا، وهو الان في المرحلة الكونفدرالية غير المعلنة منها، وعندما تقام الحرب الاهلية الشاملة الموعدة، فانفصاله سيكون تحصيل حاصل.

لا انفصال للشمال دون فصل للجنوب!

حتى لا تقوم للعراق قائمة قد تعود بالقوة له بما يؤهله لاعادة لحمة ارضه وشعبه، فلا بد من بعثرة اجزائه لاكثر من جزء منفصل كي لا يعاود الكرة وتقوم له دولة واحدة! لذلك فان تحالف الاغوات مع الايات الشيطانية في الجنوب والوسط ومع البائعين من مثقفي ونخب وتجار زمن الاحتلال بما فيهم جماعة اليسار الانتهازي والليبراليين المتصهينين، سائر وبهدى الاخوة الاعداء لتحقيق حزمة تحالفه الشاذ ذي الاهداف الشاذة! ان بغداد بثقلها السكاني المتنوع، وثقلها التعليمي والمركزي، ما زالت تشكل العقدة الاعقد في منشار تقسيمهم فاذا قسموا العراق كيف تكون تبعيتها ولمن؟ وهل يستطيع اهلها تحمل وطأة غربلتها وتجريدها من دورها كقلب نابض لعراق كان؟

الحقيقة ان كل القتل والتفجير والتفخيخ واعمال التطهير الجارية فيها مع الاهداف المتداخلة لقوى التقسيم والتحاصص وميليشياتها ونهمها المستشرس للهيمنة على تمثيل او حكم الطائفة او الاثنية او المنطقة تدل على ان هذه الاعمال وبدرجات متفاوتة هي من صنع قوى التقسيم وراعيهم الاحتلالي، وان المقاومة العراقية بفصائلها السياسية والمسلحة ونخبها ومثقفيها هي المعبر عن تطلعات شعب العراق في التصدي للاحتلال وقوى التقسيم الطائفي والقومي البغيضة، وهي المؤهلة لإبطال مفعول سموم المحتلين واتباعهم وانقاذ عراقنا من جهنمهم الذي يريدونه قبرا ازليا لبلاد النهرين العظيمة.

لقد تخلل خيارك يا بارزاني واحمض، وغطت رائحته، التي سينفر منها الاقربون قبل الابعدون والرهان معقود، فلا الشمال بعاق ولا الجنوب يرضى ان يكون جسرا للنفاق، اما بغداد فعودة الروح اليها عادة يعرفها كل شاهق وخلاق، والموصل وسامراء والانبار من وسلوى لكل مشتاق، والنجف وكربلاء حوزات ستنطق باسم العراق.

* كاتب من العراق

فلنحذر الضربة الاسرائيلية التي ستسبق المفاوضات القادمة

د. ابراهيم ابراش*

■ لم تنته الحرب في لبنان ولكن الساحة ستدخل في هدنة هشة الى حين التسوية القادمة، لأن نتيجة هذه الحرب أفسحت المجال لحزب الله ولاسرائيل بان يزعم كل منهما أنه انتصر مع تجاهل مقصود لنتائج هذه الحرب على لبنان الدولة والمجتمع وعلى فلسطين باعتبارها جوهر الصراع أو هكذا يفترض أن تكون، وجاء قرار مجلس الأمن رقم 1701 ليعكس هذا التضارب في تفسير نتائج الحرب فكل طرف يجد في القرار مبتغاه. ودون الخوض في تفسير مفاهيم النصر والهزيمة فقد بات مؤكدا بان قضايا الصراع في الشرق لن تحسم عسكريا، قد تؤدي المواجهات العسكرية في ظل موازين قوى غير متعادلة بالمفهوم العسكري التقليدي للقوة وموازينها، الى اضعاف أحد طرفي الحرب عسكريا ولكن يمكن تعويض هذا الخلل بمفاهيم الصمود والكرامة والارادة وهي قيم تلعب دورا في ثقافة شعوب المنطقة، وبالتالي لن تحسم الحروب عسكريا.

ليست الحرب ضد حزب الله هي المواجهة الأولى في هذا السياق ففي صيف 1982 قاتل الفلسطينيون ومعهم حركة المقاومة اللبنانية لمدة ثلاثة أشهر وأُخرجت قوات منظمة التحرير من لبنان ونعى البعض حركة المقاومة الفلسطينية، ولكن بعد خمس سنوات تفجرت الانتفاضة وعُقد مؤتمر مدريد واتفاق أوسلو ثم فجر الفلسطينيون انتفاضة الأقصى أو الحرب المنسية والتي قدم فيها الفلسطينيون شهداء وخسائر أضعاف ما سقط في لبنان منذ عام 1982 الى اليوم وما زالت المقاومة مستمرة، وبالرغم من كل هذه الحروب والضحايا فان مفاهيم النصر والهزيمة بين الفلسطينيين والاسرائيليين هي مفاهيم ملتبسة، فلا الاسرائيليون حققوا كل مبتغاهم وكسروا شوكة الشعب الفلسطيني ولا الفلسطينيون أنجزوا مشروعهم الوطني، ويوما بعد يوم تُرسخ القناعة مجددا بان القضية لن تحسم عسكريا.

عدم الحسم العسكري لا يعني بالضرورة أن تلجأ أطراف الصراع للسلام كخيار استراتيجي، ولكن ما بين الحرب المعممة والمستمرة من جانب والسلام من جانب ثان هناك المفاوضات ومحاولة الوصول لتسويات سياسية، هذه التسويات قد تؤدي للسلام أو تنتكس وتتجدد الحرب لحين جولة جديدة من المفاوضات على أساس ما ستتمخض عنه هذه الحرب الخ. ففكر التسوية واتفاقات التسوية تأتي بعد حروب غير حاسمة كما أن الحروب تأتي بعد فشل وانهيار تسويات قائمة، وعليه نلاحظ أن التفكير بالعودة مجددا لطاولة المفاوضات، من خلال مجلس الأمن أو مؤتمر دولي لبحث مجمل الصراع العربي ـ الاسرائيلي، راج بعد فشل اسرائيل بحسم حربها مع الفلسطين